المحاضرة الثالثة: نظرية النظم عند الجرجاني ، ومرتكزاتها.

1-النظم عند الجرجاني :

أكدّ الجرجاني غير مرّة في كتابه دلائل الإعجاز بأن النظم هو توخّي معاني النحو فيما بين معاني الكلم فيقول: " واعلم أننه وغن كانت الصورة في الذي أعدنا وبدأنا فيه من أنه لامعنى للنظم غير بتوخي معاني النحو فيما بين الكلم ، قد بلغت في الوضوح والظهور والانكشاف إلى أقصى غاية " ثم نجده يربط يربط توخي معاني النحو بالمعاني والأغراض التي يصاغ لها الكلام فيقول: " وإذا عرفت أنّ مدار النظم على معاني النحو ، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ، ونهاية لاتجد لها ازديادا بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها ، ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها ن من بعض واستعمال بعضها مع بعض "

1- أسس النظرية الجرجانية:

اعتمدت نظرية النظم عند الجرجاني على سلّة من الركائز يمكن أن نجملها فيما يأتي:

أ- الأساس الأول : نظم الكَلِم:

وهو تناسق الدلالات وتلاقي المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل مع اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض ، والذي يعرفه الدكتور جعفر دك الباب بانه: " ترتيب اللكمات وتأليف المعاني "

وفي هذا يقول الجرجاني : " والفائدة في معرفة هذا أنك إذا عرفته عرفت أنه ليس الغرض بنظم الكلم ، أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالالتها وتلاقت معانيها ، لذا فيفرق الجرجاني بين نظم الحروف ونظم الكلم بأن ضرب مثلا بـ " ربض " و" ضرب " فلو أننا جعلنا في النطق " ربض " مكان " ضرب " لما أدى ذلك إلى فساد ، فنظم الحروف تواليها في النطق وليس نظمها بمقتضى المعنى ، بينما نظم الكلم فهو اقتفاء آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس .

ولنظم الكلم شروط منها:

- **ترتيب المعاني في النفس أولا ، ثم ترتيبها في النطق** : فالألفاظ والمعاني بمثابة الجسد والروح يستحيل الفصل بينهما ، يقول الجرجاني: " لايتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير ان تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ... وأن العلم بمواقع العلم في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة على النطق "
- ***معاني النحو*** : والتي تعرفها سناء حميد البياني " بالمعاني الذهنية التي تتولد في ذهن المتكلم عند نظم الجمل ، بما ينشأ من تحديد العلاقات بين الأشياء المعبّر عنها بالكلم ، وفي حالة فقدانها يصبح الكلام نوعا من الهذيان " وهذه المعاني التي تحدد العلاقات بين الكلم ، وتربطبعضها ببعض في كل الجمل تتثمل في:
الإسناد (مسند ومسند إليه)- التخصيص (مفعول مطلق ، مفعلو لأجله- تمييز- مستثنى- مفعول معه .....) ، الإضافة ، التباع (النعت- البدل – التوكيد ...)
كما يدخل في باب معاني النحو ، التعليق والذي يعني ارتباط الألفاظ فيما بينها من علاقات نحوية وهو ثلاث طرق:
  - تعلق اسم باسم : الاسم يتعلق بالسام بأن يكون له : خبرا –حالا- نعتا – مضافا إليه مؤكد – بدلا- عطفا ..
  - تعلق اسم بفعل: الاسم يتعلق بالفعل بان يكون له : فاعلا- مفعولا – مفعولا مطلقا – نائب فاعل ...
  - تعلق حرف بهما: حروف الجر ، حروف التعدية ، حروف العطف...

2- اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض : بمعنى ترتيب الكلمات مع بعضها باختيار عناصر البنية ذات الوظيفة التنظيمية (رجاء- استفهاما – نفيا –نداء ...) وترتيب الكلمات المختارة وتحديد موقعها في الجمل ، والربط الداخلي بين الصيغ وفقا لقوانين المطابقة (كالتعريف والتنكير – العدد ، التذكير والتأنيث ...)

وعلى هذا يتم التفاضل بين الأساليب ويعلو بعضها بعضا ، فتتفاوت وتختلف .

ب- الأساس الثاني: قيمة الكلمة داخل التركيب.

يرى عبد القاهر أن قيمة الكلمة وأهميتها لا يكونان إلا وهي في التركيب ، حتى إن فصاحتها لاتظهر إلا بعد دخولها في التأليف ، إذ يقول: **" وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعدُ مكانها من النظم وحُسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤنستها لأخواتها؟ وهل قالوا، لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلاّ وغرضهم أنْ يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها "**

فالألفاظ تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ، بل في ملاءمة معنى اللفظة التي تليها .

ج- الأساس الثالث : اختلاف المعاني باختلاف الناظمين.

لما كان الأسلوب في نظر عبد القاهر هو الضرب من النظم ؛ فإنّ كل طريقة منه يعطي تركيبا يعدّ أسلوبا ، وذلك باعتماد إمكانات التأليف في اللغة وطرائقها في وصف العبارة وعلى منشئ اللغة كذلك.

فكل ناظم يختار الألفاظ الخاصة به ويضعها داخل التراكيب حسب المعنى الذي يريد التعبير عنه " ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر إلى الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق – زيد ينطلق – ينطلق زيد ، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرجُ – إن خَرجتَ خرجتُ ، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني زيدٌ مسرعا – جاءني مسرعا - وجاءني يسرع ، فيعرف لكل ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له "

د- مراعاة مقتضى الحال.

يرى الدارسون بأن هذا الأساس هو لب المعنى عند عبد القاهر الجرجاني ، فقد أشار الجرجاني في دلائله إلى الحالات التي تتصل بالتقديم والتأخير ، والإظهار والإضمار والفصل والوصل والحذف وغيرها من الحالات التي ينبغي أن يراعى فيها مقام الكلام ، وما يتصل بالموقف من ظروف عامة ، وبكل ماله علاقة بحال المتحِّدِث والمُتحَدَّث عنه مع مراعاة أنفس المخاطَبِين ، وما يتصل بهم .

" فإن قلتَ " ماضربتُ زيداً" فقدمتَ الفعل كان المعنى أنك قد نفيتَ أن يكون قد وقع ضربُ منك على زيد ، ولم تعرض في أمر غيره لنفي ، وإذا قلت: " مازيداً ضربتُ " فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضربا وقع منك على إنسان ، وظُنَّ أن ذلك الإنسانَ زيدٌ ، فنفيت أن يكون إياه"

المحاضرة الرابعة: منهج البحث في النصوص عند الجرجاني

أولا: موقف الجرجاني من النحو والنص.

نظر الجرجاني إلى النحو نظرة مختلفة عن تلك التي رآها سابقوه ومعاصروه ، فقال في مقدمة الدلائل منتقدا إيغالهم في التعقيد: "ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق وهذه الخواص واللطائف لم تتعرض لها ولم تطلبها، ثم عَنَّ لها بسوء الاتفاق رأيٌ صار حجازاً بينها وبين العلم بها، وسُدّاً دون أنْ تصل إليها وهو أنْ ساء اعتقادها في الشعر الذي هو

معدنها، وعليه المعول فيها، وفي علم الأعراب الذي هو لها كالناسب الذي ينميها إلى أصولها، ويبين فاضلها من مفضولها (...) وأما النحو، فظننته ضرباً من التكلف، وباباً من التعسف، وشيئاً لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعاً، ولا تحصل منه على فائدة"

والناظر فيما قاله الجرجاني في الدلائل يرى أنه هدفه هو بيان أهمية التأليف اللساني في تشكيل الجوانب الفنية في النص، لأن النحو عنده ميزان الكلام ومعياره ولا يستقيم المعنى في الكلام ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص. ومن ذلك يتضح الفرق بين الدراسة المعيارية والدارسة الفنية التي تنظر إلى الوظيفة المتشكلة بالعلاقات اللغوية، وهو ما اهتم به عبد القاهر عبر النظر في الجوانب المعيارية التي تهتم بالإعراب والحركات والقوانين النحوية، بنفس اهتمامه بتوظيف هذه القوانين توظيفاً يظهر القيمة الفنية والجمالية للنص.

و يتضح منهج الجرجاني في تعامله مع النص من خلال ما يأتي:

1- أثر التأليف اللساني الذي لا بد له من أن يكون جارياً مجرى لغوياً سليماً متعلقاً بالمعنى الذي يتوصل إليه من خلال ارتباط الكلمات ببعضها سواء كان هذا الارتباط في الصوت أو التركيب أو الدلالة ، حيث يقول " إنك لست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطأه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه"
2- أقام الجرجاني علاقة قوية بين مفهوم النظم والتأليف اللساني وبين أثر النحو في انتزاع الدلالة المقصودة وفي الوصول بعد ذلك إلى فنية التأليف التركيبي للنص وتأثيره في المتلقي. لقد التفت عبد القاهر إلى وجوب تحليل البنية الداخلية للجملة مضيفاً إلى ذلك بيان أثر النحو وارتباطه بالمعنى والسياق. فوجد أنّ التأليف (النظم) ليس إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم
3- حدد عبد القاهر العلاقات اللغوية التي تربط عناصر الكلام على وفق قانون النحو الذي يتجسد النظم به من خلال قوانين نحوية تمثل إمكانيات لا حصر لها مما يمكن أن يقدمه مبدع في خلق تراكيب لسانية كتعليق الكلم بعضه ببعض.
4- قام بتفصيل أنواع الأساليب العربية وطرائقها مما يمكن للشاعر أن يستغله في قوانين النحو وإمكانياته التي يقدمها له النظام النحوي بارتباط هذه الأساليب المحكومة والمنتظمة على وفق النظام الخاص مع عوامل أخرى يمكن أن تؤثر في إثبات المعنى
5- نظر عبد القاهر إلى النحو والعلاقات اللغوية بعدّهما عمليتين أساسيتين في الإبداع الأسلوبي، فهو يعتبر النحو عنصراً أساسياً من عناصر التأليف الجمالي للنص، وحاملاً للشحنات التعبيرية الذاتية المعبرة عن وضع ذاتي معين وعن روح مرحلة تاريخية معينة.
6- تعامل الجرجاني مع النحو بوصفه وسيلة لاستغلال إمكانيات كامنة أو مخزونة في الذهن البشري، وهذا هو منهج التوليديين الذين قاموا بوصف اللغة ودراسة القواعد النحوية والجمل المتولدة في لغة ما، سواء كانت هذه الجمل محدودة أو غير محدودة في عددها مما يمكن للمتكلم أن ينتجه من هذه الجمل في أعدادها غير المتناهية من خلال قابلية المتكلم والمتلقي ومعرفتها باللغة وقوانينها اللغوية والنحوية.

ثانيا: نماذج لتعامل الجرجاني مع النصوص.

1- أورد الجرجاني قول الشاعر:

الليل داجٍ كَنَفا جلبابِه *** والبينُ محجور على غُرابِهِ.

أراد الجرجاني كما اوضح من خلال هذا البيت أن يوضح حقيقة الاستعارة ، حيث يرى أنّ مزية الاستعارة أو الكناية أو التمثيل ، فيما يتوخاه المبدع من معاني النحو وبناء الألفاظ وسبكها بالنظر إلى معانيها

وفي هذا البيت أشاد بملاحته وراح يبين مكمن الجودة فيه ، فيقول: " ليس كلّ ماترى من الملاحة لأن جعل لليل جلباب ، وحجر على الغراب ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى ، فجعل (الليل) مبتدأ ، وجعل (داج) خبرا له ، وفعلا لما بعده وهو (الكنفان) وأضاف (الجلباب) إلى ضمير (الليل) ، ولأن جعل كذلك (البين) مبتدأ ، وأجرى محجورا خبرا عنه ، وأن أخرج اللفظ على (مفعول) ، يبيّن ذلك لو أنك قلت (وغُراب البين محجور عليه) او (قد حُجِر على غراب البين) لم تجد له هذه الملاحة وكذلك لو قلت: (قد دجا كنفا جلباب الليل) لم يكن شيئا ".

وغاية الجرجاني من هذا أن يوضح أن الفضل ليس للاستعارة في حدّ ذاتها بل بوضع الشاعر الألفاظ مواضع معيّنة ، فمثلا لو قال (قد دجا كنفا جلباب الليل) فإن هذا كاف للإتيان بالاستعارة ولإقامة علاقة بين الليل والجلباب ، ولكن شتّان بينه وبين ماقال الشاعر.

2- أورد الجرجاني قوله تعالى : (قال ربِّ إنِّي وهنَ العظمُ منِّي واشتعل الراس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا "

يقول الجرجاني معلقا على هذا النص " ومن دقيق ذلك وخَفيّه أنك ترى النّاس إذا ذكروا قوله تعالى (واشتعل الراس شيبا) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ن ولم يروا للمزيّة موجبا سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ن ولكن لأنه سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به مايسند إليه، ويؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده ، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأوّل ، إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ، كقولهم (طاب زيد نفسا) ، و (قرَّ عمرو عينا) و(تصبّب عرقا) و (كَرُم أصلا) و (حسنَ وجها) وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه.

وذلك أنّا نعلمُ أن (اشتعل) للشيب في المعنى ، وغن كان هو الرأس في اللفظ ، كما أن (طاب) للنفس ، و(قرّ) للعين و (تصبّب) للعرق ، وغن أُسنِد إلى ما أسند إليه ، يبين أنّ الشرف كان لأن سُلِكَ فيه هذا المسلك ، وتُوُخِيَ به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ وتسنده إلى الشيب صريحا فتقول (اشتعل شيبا الرأس) أو (الشيب في الرأس) ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ، وهل ترى الروعة التي كنتَ تراها.

المحاضرة الخامسة : أثر نظرية النظم الجرجانية في الدرس اللغوي بعدها.

أولا: أثرها في الدرس اللغوي العربي قديما وحديثا.

لا يختلف اثنان في المزية التي نالها صاحب الدلائل شيخ اللغويين عبد القاهر الجرجاني بما قدمه للدرس اللغوي قديما وحديثا ، فما جاء بعد هذه النظرية كان عالة عليها ، إذ أن الدارس يلمس صدى نظرية النظم في التآليف اللغوية التي جاءت بعدها ، فعبد القاهر كان أحسن من وصف أنماط الأساليب العربية المختلفة ، بما بثه من آراء وما وضحه في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة "

1- أثر نظرية الجرجاني في مؤلفات الزمخشري

لا يحتاج المرء الباحث لجهد كثير حتى يقف عند ملامح الحضور الواضحة لنظرية النظم في منجزات الزمخشري ؛ فقد استفاد الرجل من إرث الجرجاني ، فكان كتابه " الكشاف " تطبيقا فعليا لما جاء به الجرجاني

فقد رأى الزمخشري أن تفسير القرآن الكريم لايمكن أن يدرك بعيدا عن علوم البيان والمعاني وأنه لا غنى للفقيه أو النحوي أ المفسر إذا ما أراد أن يعرف سر النص القرآني وان يقف على خطابه ومعناه ودلالته إلا بإتقان تلك العلوم ، ولذلك اتخذ ما أسس له الجرجاني بتناوله هذه العلوم أثناء التأسيس لفكرة النظم .

2- **السكاكي ومفتاحه.**

انتهج السكاكي المتأخر عن الجرجاني أسلوبا قرائيا مختلفا للإرث البلاغي العربي ، فقد استعان بالفلسفة والمنطق في عملية تأطير الدرس البلاغي العربي فسمى مصطلحاته وضبط حدوده ، وتحديد تعريفاته وتقسيماته وتفريعاته سواء بشروحاته المختلفة أو في كتابه " المفتا ح ".

وقد كان في ذلك كله متبعا أثر الجرجاني بما خطه من حدود وتصورات في هذا العلم ، حتى قيل إن ما جاء به السكاكي ماكان إلا تلخيصا للبلاغة عند الجرجاني.

3- المحدثون:

درس محمد مندور الرججاني ونظريته في كتاب " النقد المنهجي عند العرب " وفي مؤلفه " الميزان الجديد " وهو أول من لفت الانتباه إلى الأسس اللغوية لمنهج الرجاجني قائلا: " في الحق أن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لايمكن ان نبالغ فيه أهميته ، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك دلائل الإعجاز في القرآن ، وفي النثر العربي ، والشعر العربي على السواء "

ثم يقول: " ومنهج عبد القاهر يستند إلى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى معي من يمعن النظر أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء ".

وألف الدكتور أحمد بدوي كتابا عن عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية تحدث فيه عنحياة عبد القاهر وآثاره وفصّل القول في نظرية النظم ، كما عقد الدكتور إحسان عباس في كتابه " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " فصلا تحدّث فيه عن فكرة النظم وبداياتها وبحث في قضية اللفظ والمعنى تحت نظرية النظم الجرجانية .

أما سيد قطب فقد كان أكثر من استثمر نظرية النظم بعد الزمخشري ، وقد خلصت قراءته السديدة لها إلى إبداع نظرية التصوير الفني ، والتي أشار في مقدمة كتابه التصوير الفني إلى أنها فكرتها كانت " على ضربة فأس عند عبد القاهر "..

ثم جاء العالم اللغوي تمام حسان فأحسن ترتيب ما وصل إليه الجرجاني في بناء وترتيب وتعليق وسياق وتركيب ..

ثانيا : تقاطعات نظرية النظم الجرجانية مع الدرس اللغوي (اللساني) الحديث.

من المؤسف أن العقل العربي لم يستثمر هذا الرصيد اللغوي الكبير الذي تركه عبد القاهر وغيره في محاولة إيجاد نظرية لغوية عربية تمكننا من قراءة نصوصنا الإبداعية، بعيدا عن إخضاعها لمناهج غربية قد تكون تعسفية أكثر منها تحليلية.

صحيح أن الحديث الآن عن نظرية لغوية عربية متكاملة بالمعنى العلمي الأكاديمي، أمر يبدو في غاية الصعوبة لكون التراث البلاغي العربي مشتت بين مصادر ومضان كثيرة، كما أن هذا الإنتاج اللغوي لم يكن متواصل الحلقات ومر بمرحلة فراغ يبدو أنها طالت كثيرا وهي ما يعرف بـ"عصور الانحطاط" فقد بذلك هذا الإنتاج اللغوي إيقاعه التصاعدي فدخل في دوامة من الاجترار والركود وغاب الاجتهاد ومعه الروح الإبداعية القادرة على إنتاج نظرية لغوية. لكن أصبح اليوم وأكثر من أي وقت مضى وفي ظل تنامي النظريات اللغوية الغربية والتي لم تقدم لحد الآن إجابات مقنعة أصبح لزاما علينا التفكير في إيجاد هذه النظرية

والدراس سيرى بأن ماجاء به الجرجاني كان حاضرا في تفاصيل كثيرة من النظريات اللغوية الحديثة وهو ما سنحاول رصد بعضه من نقاط التشابه بين ما تضمنته كتابات عبد القاهر الجرجاني وما وصلت إليه النظريات اللغوية الحديثة.

أولا مسألة اعتباطية العلاقة بين شطري العلامة اللغوية.

كتب فردناند دي سوسير قائلا: "إن العلاقة التي تربط الدلالة بالمدلول هي علاقة اعتباطية، أو بعابرة أخرى، لما كنا نقصد بالدلالة الكل الحاصل من اجتماع الدال واتحاده بالمدلول فإننا نستطيع أن نقول على وجه الاختصار: إن الدلالة اللسانية اعتباطية، وهكذا فإن لفظ الأخت sœur ليس مرتبطا بأية علاقة قد نتخيلها موجودة داخل سلسلة أخرى من الأصوات تكون دالة وكبرهان على ذلك أن الخصائص المتباينة للألسنة تكون متضاربة فيها بينها وبالأولى وجود ألسنة مختلفة، فمدلول الثور bœuf يكون له داله الصوتي b-o-f داخل حدود بلاد معينة، وله أيضا دال صوت آخر هو o-k-s (= ohs) وراء الحدود"
وكل ما قصد إليه سوسير هو أن العلاقة بين المدلول والدال. كما هي الحال في مفهوم "الخبز" وكلمة الخبز الدالة عليه، كانت في الأصل اعتباطية، من حيث إن ذلك المفهوم لم يكن ليستتبع بالضرورة تلك الكلمة، ومع ذلك فإن سوسير يوضح غاية الوضوح على الرغم من أن كلمة "خبز" قد ربط بينها في ظرف طبيعي موغل في القدم وبين مفهوم "الخبز" فإن هذه الرابطة تعد اعتباطية منذ اللحظة التي تقبلها فيها المجتمع. وهكذا كانت الدوال في الظرف الطبيعي اعتباطية لكنها صارت في المجتمع ثابتة."
تعالوا معنا نرى هذا في التراث البلاغي العربي، وكتنبيه لا بد منه، فنحن لسنا بأي حال من الأحوال نريد أن نؤسس شرعية الماضي العربي من خلال منظور غربي حديث، فهذا أمر نستبعده ولا نريد أن نقيس تراثا بلاغيا ضخما من خلال منظار ضيق، نعود إلى اعتباطية الدليل اللغوي والتي سبق وأن تحدث عنها عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري وإن كان لم يستعمل لفظ "الاعتباطية" إلا أنه كمفهوم كان راسخا ومتواجدا. قال "ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا "حروف منظومة" و"كلم منظومة" وذلك أن "نظم الحروف" هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه: فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما "نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك"

هكذا كان انتباه علمائنا هذه الظاهرة مبكرا وخلاصتها أننا حينما نصدر الصوت أو الملفوظ ليدل على فكرة معينة فإننا نكون متفقين اعتباطيا على تلازم تلك العلاقة بين الدال والمدلول وكما أنه كان من الممكن أن يدل ذلك الصوت على معنى آخر أو أن يكون ذلك المعنى معبرا عنه بصوت آخر، وهذا بالطبع كان ممكنا في مرحلة مبكرة ومن ثم يكتسب قوة العرف الاجتماعي.

ثانيا : مسألة تأليف الكلام أو النظم : كما سماها عبد القاهر أو النسق والنظام كما سماها الناقد الأمريكي روبرت شواز Robert Schols :الذي يقول: "يجب أن نؤكد أن النسق اللغوي ليس وجودا محسوسا، فاللغة الانجليزية ليست في العالم أكثر من وجود قوانين الحركة في العالم، ولكي تكون موضوعا للدراسة يجب بناء لغة ما، أو نموذج لها من شواهد الكلام الفردي إن أهمية هذا المبدأ للدراسات البنيوية الأخرى بالغة، إن أي نظام إنساني لكي يصبح علما يجب أن ينتقل من الظواهر التي يسجلها إلى النسق الذي تحكمها، من الكلام إلى اللغة، وفي الطبع لا معنى لأي تصوت بالنسبة لمتحدث ينقصه النسق اللغوي الذي يحكم معناه، وما يعنيه هذا بالنسبة للأدب بالغ الأهمية، إذ لا يمكن لمنطوق أدبي، لعمل أدبي، أن يكون له إذا افتقدنا الإحساس بالنسق الأدبي الذي ينتمي إليه".
فشولز يؤكد أن النسق ليس وجودا ماديا محسوسا لكنه قانون يحكم علاقات الوحدات داخل النص كما أن التصوت اللغوي لا معنى له من دون نسق يحكم علاقات وحداته، فتحقق المعنى لا يتم من دون هذا النسق الذي يحكم العلاقة بين المرسل والمرسل إليه. هذا ما ذهب إليه شولز ولا نراه في هذا قدم أكثر مما قاله عبد القاهر سواء في تعريفه الموجز والمشهور معلوم أن النظم ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض، أم في تعاريف أخرى مفصلة قال "والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والتركيب فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق، وأبطلت نظامه الذي عليه بنى بخصوصيته أفاد كما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه

وقطعت الرحم بينه وبين منشئه... وهذا الحكم أعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المترتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل"

ثالثا : مسألة ثنائية الكلام واللغة:

التي حضيت وما تزال باهتمام كبير من طرف الباحثين قال سوسير معرفا اللغة بأنها "حصيلة اجتماعية يشترك فيها المجتمع بأسره، أما الكلام فهو ذو طبيعة فردية للزمن الماضي وبديا أنه من اليسير علينا أن نميز بين هذا النسق وبين تاريخه، أي بين ما يوجد عليه الآن وبين ما كان عليه... وبالنسبة لموقفنا، فإنه لا يوجد إلا حل واحد لجميع هذه الصعوبات" ذلك أنه يتعين علينا أن نضع أقدامنا وأن نثبتها على أرض اللسان وميدانه أولا فنجعله معيارا لجميع المظاهر الأخرى للغة ولا شك أن اللغة وحدها، من بين كثير مما له ثنائية تكون قابلة مهيأة لتعريف مستقل، فيطمئن بذلك فكرنا إلى قبول هذا السناد وهذه الدعامة التي تقدمها اللغة"، وعرف الكلام بقوله: (فالإنجاز أو التحقق هو دائما فردي ويكون الفرد دائما هو المتكفل بهذا الإنجاز ونسمي هذا الأخير بالكلام ...parole :فعل فردي متعلق بالإرادة والذكاء).

فسوسير يميز بين اللغة والكلام باعتباره الأولى خاصية اجتماعية أما الكلام فهو ذو طبيعة فردية خاصة، والشيء نفسه تقريبا نجده عند عبد القاهر الجرجاني حين قال "وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسرارا طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها، ورفعت الحجب بينهم وبينها، وإنها السبب في أن عرفت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا"

فثنائية الكلام/اللغة التي توقف عندها سوسير وغيره لم تكن غريبة بالكامل عن وعي العقل البلاغي العربي شأنها في ذلك شأن العديد من الأركان اللغوية الحديثة، كتب محمد مندور في "الميزان الجديد" عن عبد القاهر الجرجاني قائلا: "إنه يستند إلى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر، أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء تجدها في دلائل الإعجاز حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلامات système de ropports وعلى هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي.